آن الأوان لاصلاح خطابنا حول المحرقة

د. محمد نعمة*

■ ان الكثير منا بتلاوينهم المختلفة: الاسلاميين منهم أو الليبراليين أو القوميين تجمعهم بضعة أفكار أو أحكام واحدة حول موضوع محرقة النازية لليهود. ان هذه الآراء يختصرها الزعيم الروحي للاخوان المسلمين السيد مهدي عاكف بقوله في 2005/12/11 «ان الديمقراطيات الغربية تهاجم أي شخص لا يوافق بني صهيون فيما يتعلق بأسطورة المحرقة ..». ان الرئيس الايراني السيد احمدي نجاد قد أكد من جهته قبل هذا وبعده أيضاً بان المحرقة هي «أسطورة»، ومشككاً «بصحة أرقام الستة ملايين يهودي كضحايا أفران النازية» ومتسائلاً عن «سبب اعتبار البحث في عدد من قتلوا في المحارق أو مناقشته من المحرمات..» بقوله «اذا كان صحيحاً ان ألمانيا قد قتلت ملايين اليهود فلماذا لا تدفع أوروبا الثمن باعتبارها المرتكب الرئيسي للجريمة(...) ثمة دول أوروبية تشدد على القول بان هتلر قد قتل ستة ملايين يهودي في الأفران(...) ولو أننا لا نقبل هذا التأكيد..» ذاهباً الى الاعلان عن نيته في «تنظيم مؤتمر مهمته البحث في مسألة وجود دلائل علمية « لحرب الابادة تجاه اليهود والتي قامت بها ألمانيا النازية...».

بالتأكيد ان اسرائيل عندما تلجأ الى لغة أرقام ضحايا اليهود فان هذا يدخل من باب البروباغندا التذنيبية المستجدة عندها والا لماذا صمتت عنها طوال مدة تأسيسها والى ما بعد حربها لعام 1967؟ أما نحن فلماذا ننساق لنفس اللعبة هذه؟ ما هي مصالحنا ان كان الرقم يوازي ما هو متداول أو أكثر أو اقل بكثير، وخاصة ان طرفي الحدث، أي المحرقة، هما الغرب من جهة واليهود واسرائيل من جهة أخرى؟ ان صراعنا مع اسرائيل يجب أن لا يعمي أبصارنا عن ماهية ومدى جرائم الغرب بحق الانسانية جمعاء ابان حربيه الأولى والثانية. بما اننا لسنا الضحايا المباشرين للمحرقة، ولم نكن اطلاقاً الجلادين والقتلة، فلماذا اذن نترك لهؤلاء المجرمين ولأيديولوجيي هذه الحقبة السوداء المعاصرين من فاشيين أو نازيين بان ينهلوا من مياهنا غير الملوثة ليسقوا زرعهم اليابس؟ اننا لا نحتمل رقم ستة ملايين ضحية، لكن هل رقم مليون أو ألف يكفي؟ هل يمكننا تحمل قتل حتى شخص واحد فقط لسبب اختلافه العرقي أو الديني أو الاجتماعي؟ الم نكن محط ملتقى ومأوى للأعراق والأجناس والديانات بمن فيهم اليهود الهاربون من اضطهاد الآخرين؟ الم يحمنا موروثنا الديني من كل نزوة للجوء الى قتل الآخر المختلف أو الشبيه وذلك لمجرد تمايزه عن الذات؟ الم نتعلم بان «من يقتل نفسا واحدة دون حق كمن يقتل الانسانية جمعاء...» وذلك بالضبط «لأننا جعلناكم قبائل وشعوباً لتحابوا..».

مع هذا الاطار الأخلاقي يمكننا الخروج نهائياً من منطق أرقام الموتى العبثي والمغلق، لكي نتعرض لمسألة المحرقة بروية وبتمحص ولكي نرى ما هو أثرها على واقعنا وما العمل العقلاني الدعائي المضاد من اجل قضايانا.

قبل التطرق لمسالة المحرقة ووقعها على قضايا العرب، لا بد من تبيان بعض المظاهر السلوكية والأيديولوجية لدى الغرب والتي تعود للخلف الى ما وراء الحربين العالميتين الأولى والثانية، والتي ترمز لارث ديني ثم حداثي يقوم على نبذ الآخر ثم على «عقلنة» تراتبية للعلاقة معه.

ان النازية والفاشية لم تأتيا من العدم، لقد خرجتا من أعماق التاريخ الأوروبي، وترجمتا أولاً النفور الجماعي المستديم تجاه الآخر وثانياً المكوث في دوامة «برمجة» التمايز. ان المؤرخ الفرنسي أنزو ترافرسو يمدنا بتاريخ حدثي لهذه الأيديولوجيات والذي يعتبر بان براعمها قد بدأت مع أولى اختبارات المقصلة والتي تقدر على الحز والقطع السريع والمتوالي، مع هذه الآلية للقتل «المتحضر»، ينأى الجلاد عن أية مسؤولية مباشرة ويحيّد في داخله أي تجاذب عاطفي أو انفعالي.

ثم ان هذه الأيديولوجيات العنصرية كأشكال متأخرة ليس في عنفها وانما أيضاً في أصولها المعرفية والمعتقدية والغارقة في داروينية اجتماعية غطت سماء الفكر الغربي في المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر بمفاهيم تقوم على الأقوى باسم «الاصطفاء الطبيعي» وعلى تمجيد الغلبة باسم «الصراع من اجل البقاء» والتي أدت بتعبيراتها «التطبيقية» الى اجتياحات الشعوب المختلفة ومن كل القارات وخاصة أثناء الحرب العالمية الأولى. في تلك اللحظة لقد وجد الغرب معموديته التدميرية على مستوى كوني، فاذ بنا نرى كيف ان الدول الاستعمارية تمرست على ابادة الاتنيات القريبة أو البعيدة وخاصة تجاه السود، وقد تم هذا بسبب احتقارها الحاد «للأعراق الدونية» والغياب الكامل لمعنى حقوق الانسان ابان الحروب. فاذ بنا نرى كيف ان الجيوش المتقابلة في خنادقها كانت تتقاذف براكين الموت الجماعي وذلك عبر مكننة وبرمجة معقدة لآلة الموت الحديثة: دبابات، رشاشات ثقيلة وسريعة، قنابل ذات قوة تدميرية مضاعفة، قنابل الغاز والأوبئة للقتل الجماعي، قيادات ـ أركان محمية تحت الأرض، و«قطعان» البشر في الميدان تتنقل ككتل من اللحم منساقة نحو مسالخ «الدولة الحديثة». بالتساوي مع القوة والعقلنة التدميريتين، كانت أوروبا منهمكة في ترتيب اجتماعي واقتصادي لمجتمعاتها ويقوم على «فوردية» صناعية وادارية ـ تيمناً بمؤسسها الميكانيكي هنري فورد ـ والتي تستند على هاجس الانتاجوية المرتكزة على تقسيم عامودي وأفقي للمهمات التصنيعية بشكل عقلاني دقيق ومتشعب.

مع هذا الارث من العنف الهائل والمعتقدات الاستعلائية والمعرفة الباردة تم الولوج الى مرحلة الحرب العالمية الثانية. فاذ بالضحايا تتساقط وأولهم المعاقون عقلياً وجسدياً وقد تمت تصفيتهم بعملية «ت 4» وما يسمى آنذاك «بالقتل الرحيم».

وأيضاً ذوو النزوع الجنسي المثلي والذين قال عنهم احد قادة النازيين وهو هيملر في عام 1937 « يجب اسقاط هذا الطاعون بالقتل»، فتم تجميعهم ومنذ عام 1935 في معسكرات الاعتقال الى أن تمت ابادة عشرات الآلاف منهم ابان الحرب العالمية الثانية. ان هؤلاء الضحايا لم يتم الاعتراف بهم الى الآن من قبل ديمقراطيات أوروبا «المعادية» للنازية وللفاشية. ثم جاء دور الغجر، هذا الشعب المعروف بتعرضه المزمن للأضطهاد ولسوء المعاملة من قبل الدول الأوروبية كافة. في أولى سنوات الحرب وفي فرنسا جرى قتل 28000 من هذا الشعب « البدون» جنسية. وفي سنة 1940 تم اقتلاعه من بولونيا، وفي عام 1943 تم نقل بقية الغجر الى معسكر الابادة اوشفيتز. لقد اعترف النازيون بأنهم قد أزالوا نصف هذا الشعب. والأسوأ من ذلك هو انه في محاكمة نورمبرغ للنازيين لم يتم اطلاقاً من قبل الدول الغربية المنتصرة التطرق الى مسألة فواجع ومآسي هذا الشعب الطريد، والذي ينتظر والى الآن الاعتراف بما حل به.

لن نتوقف عند المجازر التي حلت بالشعوب السلافية ولا عند تصفية الشيوعيين والوطنيين المقاومين للنازية وللفاشية ولا الى تصفية البولونيين الذين كانوا في المعتقلات أو للألمان المعارضين، وسنتحاشى كلياً تناول لغة الأرقام فيما يتعلق باليهود ضحايا معسكرات الابادة في أوروبا بل يكفي أن نشير بأنهم قد تعرضوا هم أيضاً لهذه الابادة وبشكل كثيف ومنظم. ولكن لا بد لنا من وقفة أمام عدد قتلى الحرب العالمية الثانية وحدها لكي نكتشف أهوال وفظائع الغرب والتي أصاب بها الانسانية جمعاء. ان خسائر البشرية كانت تقارب 55 مليون انسان من بينهم أكثر من 22 مليون مدني غير مسلح. فلو دلت أرقام الضحايا على شيء فانها تدل بوضوح على المستوى «المتقدم» الذي بلغته ابتكارات القتل التي أبدعتها حداثة الغرب، من المعتقلات ـ المسالخ الى هيروشيما المبادة بشرا «وحجرا»، والى القنبلة النيوترونية والتي لا تمس الممتلكات والثروات المنقولة أو غير المنقولة وانما تبيد الانسان فحسب. كل هذه الهمجية الفعلية والمتخيلة تمت بفعل حداثة غربية محكومة بالعقلنة الباردة للمقابر والبرمجة النفعية للدم وللعرق وللدموع. لقد تمت بفعل حداثة مسلوبة بالمكننة المؤلهة، ومهووسة بالتصنيف الهرمي للبشر وللأشياء.

في اطار هذا النسق من الرعب والفظائع وجب وضع «التطبيقات» الميدانية لعمليات «التطهير» العرقي، للابادات الجماعية ولقتل الشعوب، وهو أيضاً كمثل ما كانت عليه الحال تقريباً في معسكرات ستالين (جولاغ) للتعذيب وللقتل المنهجي للافراد والجماعات. في هذا النسق لقد جرى القتل بدم بارد، وعلى يد بيروقراطية مخططة، تجهل معنى الانتقام الأعمى والتشفي القسري. في هذا الاطار قد يمكن قراءة المحرقة «كتقنية» ليست موجهة لفئة محددة فقط، «كوسيلة انتاج» وليست غاية بذاتها. كجزء أو كحلقة من «نظام للاماتة» كامل الأبعاد وذي نمط صناعي والذي تكلم عنه أنزو ترافرسو باعتباره نظاماً وظائفياً مبرمجاً على شاكلة مصنع له ادارته، وتقسيم عمله وغاياته «الانتاجية»، في هذا الاطار يمكننا وضع معاناة اليهود، وكل الذين عانوا من «فرن البربرية» الأوروبية هذا.

لكن بالاضافة لهذه العوامل، فان لاضطهاد اليهود في أوروبا خصوصياته التاريخية، الاجتما ـ سياسية والعقائدية. وبدورنا لن نقف عند هذه الخصوصيات الا باطارها الحداثي القريب والمؤسس للحقبة المحرقة ولدولة اسرائيل، وتحديداً لدور المعاداة للسامية المتأصل في اوروبا المنكفئة على ذاتها والمكتسحة لماهيات الآخرين، هذا الدور لا يمكن فصله عماً مرت به أوروبا منذ منتصف القرن التاسع عشر الى عشية تأسيس دولة اسرائيل، وعمّا له من آثار في فكرة الصهيونية نفسها.

في تلك الفترة كانت أوروبا المستعلية «بتقدمها» على المعمورة، وببورجوازيتها الظافرة والمتحكمة تعاني من أزمة اقتصادية خانقة وخاصة في أواخر القرن التاسع عشر، وقد كان من نتيجة هذه الأزمة النزوح الكبير للفلاحين والمزارعين نحو المدن الكبيرة مما زاد الأزمة مآزق جمة. في هذا الجو ظهرت الأيديولوجيات العنصرية واللاسامية بقسوتها مصاحبة لتلك الأزمة وكظلها. من ألمانيا الى روسيا ومن النمسا الى فرنسا فان الحملات العنصرية ضد الأقليات وخاصة اليهود بدأت تنفجر في الكتب والصحف، بل في السلوك اليومي. في تلك الحقبة بدأت النظريات «العلمية» و«المعرفية» للتمايز العنصري والعرقي تأخذ مكانها الأوفر والأوسع انتشاراً. فاذ بنظريات العرق ـ القومية، سواء في ألمانيا أم في فرنسا تغطي على ما عداها من قضايا. وأخذت هذه النظريات تنادي ببناء الأولويات وترتيبها استنادا الى «هرم» الأعراق والأجناس.

يجب أن نعرف بان الأغلبية الساحقة من المؤلفين الجرمان والمولودين بين عامي 1860 و1870 قد تطرقوا في كتاباتهم الى «مشاكل» و«اضطرابات» الهوية أو النفسية اليهودية، وبان الغرب المسيحي ومن ثم الغرب الحداثي قد فرض على اليهود ذوبانهم الثقافي اما عبر العزل أو عبر الضغط ومع ذلك فان هذا الذوبان لم يؤد الى معاملتهم بالتساوي مع الثقافة السائدة. وبالتالي لقد بقي اليهود «موشومين» كنشاز، بحيث لا الزواج المختلط ولا التخلي الطوعي عن الديانة اليهودية قد حدّ من شدة العداء لليهود، لا بل انهما قد بديا لا يفيان بالغرض المطلوب وهو: تصفية صفة يهودي ومحو كل اثر لها، وهذا كان معتمراً في النفس الأوروبية، ومحركاً للسلوك العدواني والعنصري تجاه الأقليات منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية وبعقود.

في هذا الاطار من القلق والاضطرابات الاجتماعية، وفي هذا الاكتساح العنصري واللاسامي للنفوس، ظهرت الصهيونية كردة فعل وبنفس الوقت كظاهرة مستنسخة من حيث فكرتها الأصلية والقائمة على العرق ـ القومية أو العرق ـ الأرض. للوهلة الأولى، ان الصهيونية قد تبدو متعارضة مع النزعة اللاسامية هذه، الا انه في العمق ثمة مصدر تاريخي واحد للعقيدتين وذلك رغم تناقضهما في الهوية. بحيث يصعب على المؤرخ أو الملاحظ الأكاديمي تلمس ظاهرة نشوء الصهيونية وبنيتها دون الانعطاف نحو أختها البكر اللاسامية الغربية وعدوانيتها وتحديداً منذ منتصف القرن التاسع عشر. فاذا كانت فلسطين التاريخية قد أنجبت اليهودية فان أوروبا العنصرية أو اللاسامية هي التي أنجبت الصهيونية.

هنا لا بد من الاشارة الى انه وقبل نشوء دولة اسرائيل لا بل قبل ظهور الأيديولوجية الصهيونية هذه، كانت كل المشاعر والعقائد القومية تعاش من قبل اليهودي، وأينما كان، كخطر محدق به لان هذه تحشره في أقلوية دفاعية، توشمه كمختلف. فتأكيد هذا لهو ممكن وذلك عندما نجد بأنه حتى لحظة اندلاع الحرب العالمية الثانية لم تستطع الصهيونية كدعاية وكتنظيمات ومؤسسات وكطاقات مادية ومجتمعية بان تقنع الجاليات اليهودية المضطهدة في أوروبا بالنزوح نحو فلسطين والقيام بواجبهم: ALLIHA في عودة «قومية» الى ارض الميعاد.

حتى عذابات المحرقة ونيرانها لم تكن هي المبرر المباشر لحشر اليهود الناجين في البواخر المتجهة نحو فلسطين. لا بل انه مع تأسيس دولة اسرائيل، كانت الدعاية الصهيونية خالية من أي ذكر أو تلميح للمحرقة. لقد كانت البروباغندا الصهيونية تقوم على تجسيم وتضخيم صورة من هم «بنّاؤو الصحارى» و«مقاتلو الحرية والاستقلال». وذلك تفادياً لصورة الضحية التي حملوها معهم كتائهين وناجين من الجلاد الأوروبي. لقد تمت التعمية من قبل الصهاينة على الناجين وعلى معاناتهم المكتومة وذلك منذ انشاء دولتهم الى عام 1961، سنة محاكمة النازي ايشمان. الا أن المطلوب كان هو تقديم صورة « الاسرائيلي المقاوم» وليس الضحية والطريد.

ان الذي دفع يهود أوروبا الى فلسطين هو تلك العنصرية البيولوجية وذاك التوسع في « المجال الحيوي» للأمم «السامية»، وتلك الادارة الروتينية للموت المُمكَن، وذاك التطهير العرقي على مستوى قارة بحجم أوروبا، وأيضاً تلك العقيدة العنصرية المعادية للسامية وأخيراً أولئك العقائديون الصهاينة المضطهدون والمطرودون من كينونة أوروبا وهويتها ولكن ليس من ايديولوجية حداثتها، وانما من اطارها المكاني. تلك الأيديولوجية التي لم تحتمل هذا الآخر، اليهودي الذي وللمفارقة، حدد معها، وعلى مرّ التاريخ الغربي، مسألة هويتها وكينونتها وذاتها. لقد تم اضطهاده، ثم طرده، ولكنه حُمّل أو تُرك محمّلاً ايديولوجية العرق، والمكان، التي أغرقت أوروبا بالمآسي والكوارث. لقد أمدتّه بأيديولوجية الامتياز والتمييز، وأغوته بعبادة العرق ثم المحرقة كبديل حداثي لمثاله الكوني، ومن ثم نفخت فيه التشبث بالمكان كدال نهائي للوجود، وذلك على أنقاض فكرته الأصيلة وهي: أينما كانت الذات فانها تبقى في وجه اليهودي كتوأم له في المرآة؛ بحيث لم يكن ثمة حدود سياسية، ولا عوائق عرقية أو قومية منعت اتصاله بالآخر، المختلف أو الشبيه. لقد رَمَزَتْ اليهودية «الماقبل» صهيونية بالذات الى وحدة الانسان ومصيره وكونيته. من هنا فاننا لا نجد حرجاً في ايضاح حقيقة أن الهمجية الغربية بدأت في «حرق» المفكرين اليهود الكونيين قبل الشروع في «الحل النهائي» لهم كطائفة. ألم يتم احراق كتب سبينوزا، وماركس والبرت اينشتاين وسيغموند فرويد وحنة ارندت، في الساحات العامة، وقبيل رقصات الدم؟

أمام حال اليهودي الطريد من فضائه، ومن تاريخه الغربيِّن، والحامل في الآن نفسه فيروس حداثتهما، فإن الغرب يجد ذاته بمواجهة أزمة مزدوجة، أخلاقياً وأيديولوجيا: تتمثل أخلاقياً عبر ذاتية مفرطة التمركز وقاتلة، وتتمثل أيديولوجياً في Egocentrisme تشظّيها لانشطارات المكان، والثقافة، والعرق، وبالتالي تشبثها Fixation النفس ـ علائقي في آن معاً وذلك عبر ضحيته هو بالذات. اليهودي وخاصة الاسرائيلي انه ذاك الذي حالما رست باخرته في فلسطين راح يشرع باقتلاع سكانها، واذا بضحايا التمييز، والتطهير العنصري ينتجون هم أنفسهم الأيديولوجية ذاتها والأداء الغربي ذاته.

بكلمة نقولها للغربيين والاسرائيليين على السواء، ان الغرق في روتين ذكرى الماضي (المحرقة) وفي تعميمها التكراري يأتي مرادفا لتغييب فعلي لأي ربط عقلاني بين الذاكرة والحدث، بين الماضي والحاضر. فاذ بالذاكرة تصبح هنا انتقائية ومكتفية بذاتها. وبالتالي ان أي مشروع عقلنة لهذه الذاكرة سيرتطم حتما بحائط من الذنب أو التذنيب والريبة الصادة. ومع ذلك نقولها بقوة، بان لا شفاء للجروح، اذا بقي الغرب مغمضا عينيه عن جرائمه في القرن الماضي، ويلوذ الى التعمية على أهوال أيديولوجياته الحديثة وشطط حداثته، وعلى خطاياه تجاه كل ضحاياه المباشرين، اليهود وغيرهم، وعلى ضحاياه غير المباشرين وأبرزهم الفلسطينيون، وطالما بقي أيضا الصهاينة على كبتهم لمشاعر المسؤولية والذنب تجاه ضحيتهم، وهو شعب بأكمله، ألا وهو الشعب الفلسطيني.

* مدير مجلة «مدارات غربية» ـ باريس
madaratg@gmail.com

...والمحارب العظيم يحتاج لاستراحة

د. حسين شعبان*

■ لم يكن وقع خسارة حركة فتح للإنتخابات التشريعية الفلسطينية يوم الاربعاء 2005/01/26 مؤلماً عليها وحدها بل على الملايين من أبناء الشعب الفلسطيني، كانت خسارة لكل من عايش اللجوء ومراراته، الظلم وجوره، الحروب وويلاتها. قبل العام 1965 كان للحيوانات حقوق اكثر مما للاجئ أو المواطن الفلسطيني. نقول لكل المهللين لهزيمة فتح مهلاً أيها الاحبة ماذا تعرفون عن الشهداء بلال الاوسط (قائد القطاع الاوسط في جنوب لبنان) وعزمي الصغير وسعد صايل ويوسف أبو جندل، جنود حركة فتح العظيمة.

نقول حركة فتح عظيمة لأن أي رئيس دولة كبرى أو شخصية سياسية مرموقة أو باحث مختص نشر كتاباً عن الشرق الاوسط الا وتحدث بإسهاب عن الفلسطينيين، م.ت. ف. والرئيس ياسر عرفات، نورد ادناه غيض من فيض تلك النماذج.

كتبت السيدة الحديدية مارغريت ثاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة في كتابها «سنوات دوانغ ستريت»: «قبل أن أغادر الاردن (أيلول/سبتمبر 1985) اخذت لرؤية مخيمات اللاجئين الفلسطينيين. كان دينس قد اعتاد أن يقول لي أن تلك المخيمات تمزق قلبه. كان الامر غير متوقع، كانت المخيمات حسنة التنظيم ومنظمة وفاقدة الامل بشكل تام. لقد كانت تدار عملياً من قبل م.ت.ف... تحدثت الى سيدة (فلسطينية) نصف عمياء تجلس تحت ظل شجرة أمام كوخ عائلتها.

أبلغتني أنها تناهز المائة لكنها كانت تريد أمراً واحداً يمتلك فؤادها عبرت عنه: إستعادة حقوق الفلسطينيين... اقتنعت أن التحدي الرئيس كان تقوية المعتدلين الفلسطينيين ربما بالتعاون مع الاردن والتي من المحتمل أن تنحي جانباً متشددي م.ت.ف». (المصدر، مارغريت ثاتشر، 1993، سنوات دوانغ ستريت، الناشرون هاربر كولنز، لندن 1993 ص. 509 ـ 511).

الرئيس الامريكي بيل كلينتون في كتابه «حياتي» يقول «كانت لحظة تاريخية: قالوا (الاسرائيليون) ذلك للحصول على السلام، سيكون هناك حكومة فلسطينية على حوالي 97 % من الضفة الغربية تتضمن التبادل (تبادل بعض الاراضي) وجميع قطاع غزة حيث كانت هناك مستوطنات إسرائيلية أيضاً. كانت الكرة في ملعب عرفات. كنت أتصل بالزعماء العرب لأحضهم على الضغط على عرفات أن يقول نعم». (المصدر، بيل كلينتون، 2004، «حياتي»، هتشنسن، المملكة المتحدة ص. 938).

كتب الصحافي البريطاني المرموق جون سمبسون يقول «العديد من الوسطاء حاولوا المساعدة، (الازمة العراقية الكويتية في 1991) أحدهم كان رئيسة وزراء باكستان بنازير بوتو. الآخر كان رئيس م.ت.ف. ياسر عرفات، على النقيض من سمعته في إسرائيل والولايات المتحدة كان (عرفات) صانع اتفاقيات ملتزما. حيثما كان هناك صراعات في العالم العربي كان عرفات يطير الى هناك محاولاً تحقيق الاتفاق». (جون سمبسون ، 2003، «الحروب ضد صدام»، لندن، ص. 126)

ملاقاة الرئيس عرفات وجه ربه يوم الخميس، 11 تشرين الثاني/نوفمبر كان الخبر الابرز الذي تصدر غلاف الصحف والمجلات الغربية المرموقة بدءاً من «ذي اندبندت» في لندن وصولاً الى «تايمز» في نيويورك، واشنطن أو امستردام لا فرق. هذا مع العلم ان معظم رؤساء تحرير تلك الصحف والمجلات كانوا كما رؤساء حكوماتهم شامتين بمصاب شعب فلسطين. خيب أبو مازن أمل إدارة الرئيس بوش، فحمى ومعه فتح المجتمع الفلسسطيني من حروب أهلية اعدها تجار النفط والسلاح في البيت الابيض.

دحضت حركة فتح والرئيس محمود عباس نظريات فرانسوا فوكوياما وزناديق «صراع الحضارات» المدعية أن العرب والمسلمين لا يمكنهم اللحاق بركب الديمقراطية والحضارة فأثبت بالدليل القاطع أنهم أحفاد رواد الحضارة والعلم والديقراطية، قدم رجال فتح أجسادهم وأرواحهم قرابين على مذبح الديمقراطية فاجترحوا مأثرة احترام خيار وإرادة شعبهم، فصاروا منارة ونبراساً لكل شعوب بلاد العرب أوطاني من الشام لتطوان.

حركة فتح عظيمة لأنها لم تخاصم أي حاكم عربي في حين ناصبها كثير منهم العداء والله لا يضيع أجر المؤمنين. لم يعذب أبو عمار وابو مازن أي مواطن فلسطيني أو عربي تلبية لرغبة مخابرات أجنبية، لم يتآمر الختيار على أشقائه العرب وكان على الدوام رسول خير ومحبة. صان ياسر عرفات المودة والخبز والملح مع رفاق دربه فأنحنى امام تواضعه كل من التقاه. حركة فتح لم ترد أحداً استجار بها أو طلب حمايتها، لعله اجدى بالحكام العرب الطربين لهزيمة فتح أن يخجلوا من شعوبهم.

حركة فتح عظيمة كونها بادئة الدعوة للحوار، العمل المشترك والتعاون والتنسيق، ألم تتمسك وتتشبث حركة فتح وابو عمار وأبو مازن بفصائل وشخصيات وحركات أثبت صندوق الاقتراع ضآلة حجمهم وهامشيتهم؟ ألم يصفح ابو عمار وحركة فتح للرفاق جورج حبش ونايف حواتمة وأحمد جبريل إساءاتهم؟ إن الله شديد العقاب والشعب أيضاً (اللهم لا شماتة).

حركة فتح عظيمة لأن أبو عمار وقف قبل 35 عاماً بالتمام والكمال على منصة الجمعية العامة للأمم المتحدة مخاطباً العالم: لقد جئتكم بغصن زيتون في يد وفي الاخرى بندقية فكان تصفيق الحضور طويلاً والاحترام لشعب فلسطين عظيماً. أما عدد القرارات الدولية المؤيدة والداعمة للشعب الفلسطيني وحقوقه غير القابلة للتصرف منذ ذلك الحين فتتالت ولم تعرف التوقف الا بعد أن بدأ أقرب الاشقاء التآمر على أبوعمار وحركة فتح والشعب الفلسطيني.

حركة فتح عظيمة لأنها قبلت نتائج الانتخابات فهنأت وباركت لحركة حماس إنتصارها ودعتها لتسلم الراية. فجأة فرملت الحركة شبقها للسلطة وهي التي كانت تسابق الزمن والريح اليها. الاستاذ خالد مشعل يعلن من دمشق أن حركته ليست في عجلة لتسلم السطة وانه بحاجة الى الوقت، سبحان مبدل الاحوال ومقسم الارزاق.

برع الاستاذ خالد مشعل وقيادة حماس في ترويج أفكارهم ومقترحاتهم عن العمل المشرك والتعاون، والذي يقول لسان حاله لحركة فتح والجماعات الاخرى تفضلوا لتركبوا قطار حماس الذي سيوصلكم الى جنة النعيم. هذا كرم لقيادة حماس سيحفظه لها كل من ولد بعد 2006/01/25 أما الذين ولدوا قبل هذا التاريخ وخاصة قبل العام 1982 فيحفظون عن ظهر قلب إساءات قيادة حماس للرئيس أبو عمار وحركة فتح والرئيس أبو مازن. إن حركة حماس هي التي رفضت منذ العام 1988 المشاركة في م.ت.ف. الا وفق شروطها، ولم تشارك في الانتخابات الفلسطينية الا وفق مصالحها الحزبية.

رفضت حركة حماس على مدى عشر سنوات ويزيد المشاركة في السلطة الفلسطينية لأن هذه وليدة اتفاق أوسلو اللعين وقدمت قيادة حماس السلطة الفلسطينية للفلسطينيين والعرب والمسلمين على أنها امبرطورية الشر وكالت لها وللرئيس الفلسطيني التهم بلا حساب ولا ضوابط أخلاقية، كما ناصب قادة حماس الاجهزة الامنية الفلسطينية العداء ونعتوها بأوصاف ما أنزل الله بها من سلطان.

مختصر القول بالغت قيادة حماس وعن سابق إصرار في إهانتها وإساءتها لحركة فتح والمؤسسات الفلسطينية فكانت تعابير الفساد، الهدر، الهيمنة، السيطرة والتنازل عن الثوابت أكثر المصطلحات رواجاً في خطابها. ولكن عندما دقت ساعة الحقيقة وأصبح بإمكان حماس أن تجتث وحدها الفساد وتوقف الهدر وتحرر الاسرى وتطهر الأرض فإذا بها تتمهل وتنادي هل من معين أو شريك.

ستكون فتح معيناً وكذلك الشعب الفلسطيني ولكن دون أن يركبوا قطار حماس الذي لا يعرف أحد وجهته بعد. محقة قيادة حماس فإنها لن تستطيع إدارة حياة الشعب الفلسطيني ومفاوضات السلام والمقاومة بدون حركة فتح. ولكن لماذا ترتضي قيادة حماس لقيادة فتح ما لم ترتضيه لنفسها؟ لماذا رفضت قيادة حماس ان تركب قطار الشعب الفلسطيني عندما كان يقوده المرحوم ابو عمار طيب الله ثراه، انها المعاملة بالمثل، العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم.

لندع اختلاف البرامج والسياسة جانباً ونسأل لماذا تصر قيادة حماس على جعل الشالات والقبعات والرايات الخضراء سائدة ومسيطرة في مسيراتها واحتفالاتها في ظل غياب ملحوظ للعلم والكوفية الفلسطينيين اللذين لفت بهما وجوه وأجساد عشرات إن لم نقل مئات الاف الشهداء من أجل فلسطين؟ أهذا هو التنوع الذي تعدنا قيادة حماس بصيانته واحترامه؟ أهكذا تواصل مسيرة السلف الذي تعدنا قيادة حماس بعدم انقطاعه؟ لماذا خالف الاستاذ خالد مشعل وقيادة حماس في دمشق يوم 2006/01/28 تقليد أشقائهم في فلسطين فتلفعوا بالشال الفلسطيني لا بالشال الاخضر.

استمدت حركة فتح عظمتها من عبقرية وشجاعة وتواضع ياسر عرفات وتضحيات رجال صادقين على مدى أربعة عقود ونيف لا تتسع المجلدات لذكرهم. حركة فتح تنتصب شامخة الى جانب حزب المؤتمر الافريقي حزب نلسون مانديلا وحزب المؤتمر الهندي حزب غاندي ونهرو وحزب العمال البريطاني. إنها الخسارة الانتخابية الاولى لحركة فتح منذ خمسة عقود، أوليس المحارب بحاجة الى استراحة بنظف خلالها ما علق على أطراف وبين أصابع قدميه من فطريات وطفيليات بعد مسيرة الاربعين سنة. أنظار وقلوب ملايين الفلسطينيين مشدودة الى قيادة واعضاء حركة فتح في فلسطين متضرعين الى الباري وداعين لهم بالتوفيق.

* باحث من فلسطين يقيم في بريطانيا
hachaab@yahoo.co.uk

المهاجرون المغاربيون في أوروبا وسؤال الاندماج!

د. إدريس لكريني*

■ أصبح موضوع الهجرة يحظى في العقود الأخيرة بأهمية كبرى ضمن مختلف الدراسات الأكاديمية واللقاءات الدولية، ويشكل محورا أساسيا للعديد من الاتفاقيات الثنائية والجماعية بين الدول، وقد أسهمت في ذلك التحولات الدولية المتسارعة المرتبطة بعولمة الاقتصاد والسياسة والثقافة والقيم.. التي أدت بدورها إلى بروز إشكالات ونقاشات بين دول الجنوب ودول الشمال بهذا الخصوص، بعدما انخرطت هذه الأخيرة في تطويق الظاهرة بترسانة مكثفة من الإجراءات والتدابير القانونية والأمنية، متذرعة في ذلك بمجموعة من الأسباب (الأعباء المالية والاقتصادية والاجتماعية للمهاجرين، واعتبار بعضهم مصدرا لانتشار التطرف والإرهاب..).

فبعد انهيار المنظومة الشرقية ونهاية الحرب الباردة وما تلاه من ترويج مكثف للنظام الليبرالي كنموذج متفوق وفريد، راجت الخطابات الدولية القاضية بمحدودية سيادة الدولة في زمن العولمة بفعل تشابك المصالح وتزايد سياسات الاعتماد المتبادل، وانخرطت مختلف دول العالم في الحد من مناعة وقداسة الحدود السياسية والجغرافية بينها، عبر اتخاذ مجموعة من الإجراءات الميدانية (تبني مجموعة من الإصلاحات والترتيبات على مختلف الواجهات: الاقتصادية والسياسية والمؤسساتية..) والاتفاقية التي تسمح بحرية تنقل رؤوس الأموال والبضائع والأفكار، بينما ظلت أمور عديدة مهمة على هامش «بشرى» هذا التجانس المعلن ـ الذي يتوخى إزالة ما يعرف بالتمايز بين المحلي والعالمي في إطار سياسة التحرير ـ وبخاصة في ارتباطها بتنقل الأشخاص من دول الجنوب نحو بلدان الشمال، هذا الملف الشائك الذي لم يطله نفس الاهتمام الذي حظيت به الأمور الاقتصادية والتجارية... حيث تبنت الدول الأوروبية مجموعة من السياسات التي حاولت في مجملها الحد من تدفق المهاجرين، بعدما كانت في بداية الستينيات والسبعينيات من القرن المنصرم، تقدم تحفيزات تشجيعية بغية جلبهم، عندما كانت بحاجة إلى سواعد شابة لبناء اقتصادها الذي أنهكته الحروب والأزمات.

وكان من أهم نتائج هذه التوجهات فيما يتعلق بدول المغرب العربي، أن شكلت الجالية المغاربية ثالث جالية بأوروبا بعد تركيا وأوروبا الشرقية سابقا، إذ ساهمت بشكل كبير في بناء الاقتصاد الأوربي وإنعاش الموازين التجارية للدول المغاربية بفعل تحويلاتها المالية نحوها.

وتعد فرنسا من ضمن أكبر الدول التي تحمست حينها لجلب أكبر عدد من المهاجرين الشباب من إفريقيا، وبخاصة من منطقة المغرب العربي للعمل في المقالع والمناجم والحقول والطرق والمصانع.. بأجور رخيصة.

إن هذه الوضعية وبفعل انهيار الاتحاد السوفييتي وما تلاه من رغبة متزايدة في توسيع الاتحاد الأوربي من جهة، وتزايد وتيرة الهجرة المغاربية إليه تحت ضغط الأزمات الاقتصادية والاجتماعية المتزايدة من جهة أخرى.. بدأت تتغير ابتداء من العقد الأخير بفعل الترسانة القانونية الجديدة التي أقدمت عليها دول الجماعة الأوروبية من أجل تنظيم هذه التدفقات نحو بلدانها والسعي الحثيث للحد منها.

ومن جانب آخر وجد معظم المهاجرين المغاربيين أنفسهم ـ وإلى جانب العديد من نظرائهم المنحدرين من أصول إفريقية ـ وبعد مرور عقود على استقرارهم في العديد من الدول الأوروبية، على هامش المجتمع، بفعل تضافر وتراكم مجموعة من الإكراهات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية... الأمر الذي طرحت معه بحدة أسئلة ملحة تتعلق أساسا بمدى قدرة الدول الأوروبية المستقبلة على تحقيق اندماج حقيقي لهؤلاء داخل مجتمعاتها.

فالإقامة القانونية وأوراق الجنسية والفضاء الديموقراطي..، كلها عناصر لم تكن كافية لتأمين عيش كريم لهؤلاء، ولم تحمهم من الحيف والتهميش الاجتماعيين والتمييز العنصري الذي طال العديد منهم..

وقد جاءت أحداث ضواحي باريس حيث تقطن نسبة مهمة من المهاجرين المنحدرين من أصول مغاربية وإفريقية، والتي حملت مظاهر من العنف وإضرام الحرائق في المباني والسيارات والمدارس العمومية والخاصة..ـ قبل أن يطال ذلك مدنا ومناطق أخرى ـ لتكشف جزءا من المأساة اليومية التي ما فتئ يتخبط فيها هؤلاء، ولتظهر بشكل جلي زيف الشعارات الأوروبية والفرنسية ـ على وجه الخصوص ـ التي تؤكد على اندماجهم في المجتمعات الأوروبية.

وعلى الرغم من أن هذه الأعمال جاءت كتعبير تلقائي على واقع مزرٍ ما فتئ يعيشه العديد من السكان الفرنسيين المنحدرين من أصول مغاربية وإفريقية، ويعكس التهميش والعنصرية والبطالة والسكن غير اللائق والحرمان من الخدمات والتأمينات الاجتماعية.. فإن وزير الداخلية الفرنسي وصف القائمين بهذه الأشكال الاحتجاجية بالرعاع والأوباش، قبل أن يتوعد بترحيل كل من يتورط في أعمال الشغب، فيما أقدمت السلطات الفرنسية على فرض حظر التجول في مختلف المناطق، وهي الحالة التي لم تعهدها فرنسا منذ ما يربو على النصف قرن.

أما الأحزاب الفرنسية المعارضة، فقد جاءت مواقفها من هذه الاحتجاجات متماهية إلى حد كبير مع المواقف الحكومية... فيما حاول اليمين المتطرف الذي طالما طالب بترحيل المهاجرين و«تطهير» البلاد منهم، باعتبارهم مصدرا لكل المشاكل التي تحيط بفرنسا، استثمار هذه الورقة لجلب مزيد من المتعاطفين مع برامجه وتطلعاته، حيث طالب بتعزيز سياسة إغلاق الحدود أمام الهجرة المغاربية والإفريقية بشكل عام.

وعلى العموم، شكلت هذه الأحداث مؤشرا قويا على فشل الحكومات الفرنسية المتعاقبة، اليمينية منها واليسارية على حد سواء خلال السنوات الأخيرة في دمج المهاجرين وبخاصة المغاربيين منهم، الذين يحتلون نسبة مهمة من مجموع السكان.

والغريب في الأمر أن البرامج الانتخابية للعديد من الأحزاب الفرنسية على اختلاف توجهاتها، حفلت بشعارات تبشر في مجملها بالتسامح وبتحقيق الاندماج وتحسين أحوال المهاجرين...، ويبدو أن اللون والانتماء الثقافي والعقائدي لفئة من المهاجرين، لازال يشكل عائقا دون تحقق هذا الاندماج المستحق.

والجدير بالذكر أن الطابع العفوي والتلقائي لهذه الاحتجاجات التي اتخذت أشكالا من الفوضى أحيانا، لم يحل دون شد انتباه الطبقة السياسية الفرنسية إلى مظاهر الحرمان والحيف والتهميش التي تطال هؤلاء، وفرض بذلك نقاشا واسعا حول مستقبل الجاليات الأجنبية في فرنسا وإمكانية نجاح هذه الدولة في دمجها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.. وبعث أيضا برسالة حقيقية إلى العديد من الدول الأوروبية التي تحتضن نسبة كبيرة من المهاجرين الذين لم يسمح لهم بعد بالاندماج الحقيقي في هذه المجتمعات.

وبالنظر إلى الطابع الاجتماعي لأهدافها ـ ارتباطها بمعاناة يوميةـ ، وعفوية تقنياتها ووسائلها، فإن هذه الاحتجاجات لم تحمل أي طابع إيديولوجي ولم تؤطر بشكل سياسي منظم، كما لم تتجرأ أية جهة سياسية على استثمارها، ولعل هذا ما جعلها تستأثر باهتمام إعلامي دولي واسع.. وتحظى بتعاطف كبير في أوساط الرأي العام العالمي، مما أثر في صورة فرنسا دوليا، رغم اتخاذها ـ الاحتجاجات ـ أبعاد ووسائل منحرفة أحيانا، وبخاصة عند استهداف ممتلكات الغير.

إن هذه الأحداث بينت أن الإفرازات السلبية للهجرة الدولية والمجسدة لعدم الاندماج: الشعور بالدونية، العيش على هامش هذه المجتمعات، ممارسة العنف بمختلف أشكاله..، تعكس بالملموس المأزق الذي وصلت إليه المقاربات والسياسات التي عولجت بها قضايا الهجرة الدولية، وتكشف أيضا أن الأسئلة الحقيقية في هذا الصدد، ظلت مغيبة. فعوضاً أن تشكل الجماعات المهاجرة في مجمل الدول الأوروبية جسرا للحوار والتلاقح والتعايش بين مختلف الثقافات والحضارات، ورابطة إنسانية واقتصادية وثقافية فعلية تستفيد منها جميع الأطراف والشعوب، تعرضت في معظمها لتهميش ممنهج.

وأخيرا يمكن القول أن المقاربات المحكومة بالهاجس الأمني والتي أكدت الممارسة الميدانية عقمها وعجزها، ينبغي أن تتراجع لتفتح المجال لتدابير ديمقراطية أكثر عمقا وعقلانية، تعتمد الأخذ بالعدالة الاجتماعية ضمن أهدافها وممارساتها، بالشكل الذي يتيح اندماجا حقيقيا لهؤلاء المهاجرين، ويسهم في تدبير اختلافاتهم العقائدية والثقافية.. ويوفر لهم الشروط الموضوعية والضمانات اللازمة لتوفير عيش كريم، أسوة بباقي المواطنين الفرنسيين والأوروبيين.

* أستاذ جامعي، كلية الحقوق، مراكش
www.drisslagrini.gtx.fr

هل هي بداية انقلاب ابيض داخل فتح؟

د. جمال المجايدة *

فوز حماس ادى الى انقلاب داخل حركة فتح نفسها، اليس في الامر مفاجأة لها وقع الصدمة الكبرى؟

هل كان هذا في حسبان قادة فتح التاريخيين لا سيما الاثرياء منهم، اولئك الابوات الكبار باجسادهم وما في جيوبهم وارصدتهم الدولارية الهائلة؟

هل كان في وارد «العائلة الفتحاوية المالكة» ان تخرج من الحكم والسلطة واحتكار القرار من المفاوضات حول القدس وخارطة الطريق وحتى ضريبة التبغ مع اسرائيل؟

يبدو ان غالبية ابناء الشعب الفلسطيني الذين صوتوا لحماس قد اقدموا على عقاب قادة حركة فتح التاريخيين خاصة رموز الفساد والفوضى والانحلال الخلقي وعدم الولاء للوطن وتغليب مصلحة العائلة على مصلحة الوطن والشعب.

ويبدو ان العقاب سوف يكون شديدا على غالبية اعضاء اللجنة المركزية باعتبارهم المسؤولين بالدرجة الاولى عن هزيمة الحركة لانهم انشغلوا في توزيع المناصب عليهم وتوريثها لابنائهم في مرحلة لاحقة، ففي غزة احتل انصار فتح كل الطرق المؤدية الى منزل الرئيس الفلسطيني محمود عباس الذي حملوه مسؤولية الهزيمة كما احتلوا مبنى المجلس التشريعي في غزة ورام الله لاجبار اعضاء اللجنة المركزية لفتح على الاستقالة وفي محافظة طولكرم قام انصار فتح بمهاجمة عضو اللجنة المركزية للحركة هاني الحسن وطالبوا بإقالته ومحاسبته.

واقسم قادة وكوادر فتح خلال اجتماع لهم يوم 28 كانون الثاني (يناير) 2006 في قاعة سينما الاندلس «ان لا يبقوا أي مسؤول في حركة فتح يعمل على اسقاطها في الهاوية».

يقول ابراهيم خريشه احد قادة الحركة «لا يوجد في فتح مستقل وغير مستقل، ويجب علينا محاسبة كل من خاض الانتخابات كمستقل وكان سبباً في ضرب فتح وهزيمتها».

ما قاله ايضا علي الزغدد مسؤول اقليم في فتح يؤكد الانقسام في الحركة التي تعيش اسوأ ايامها بعد اربعة عقود من الهيمنة على القرار الفلسطيني في كافة المجالات حيث قال بأن «من عمل مع حماس وغيرها في الانتخابات التشريعية ليس من فتح ولن يكون ولا يمكن ان يعود اليها، مطالباً بانعقاد المؤتمر السادس للحركة بأسرع وقت».

ابو اللطف احد قادة فتح في قرى جنوب طولكرم كشف عن وجود اعضاء لجنة اقليم ورؤساء اقاليم عملوا لصالح حماس وغيرها من الكتل المنافسة خلال الحملة الانتخابية مبرزاً كشفاً بأسمائهم مطالبا بمحاسبتهم وايقاع اشد العقوبات بحقهم.

ولم يخل الاجتماع من مشادات كلامية وتبادل الاتهامات بين عناصر وقادة فتح حيث نقل البعض منهم الى المستشفى بسبب حالات اختناق واغماء نتيجة التوتر الشديد والشد العصبي.

هذه التصرفات كلها توحي بان حركة فتح تصدعت بفعل الزلزال الانتخابي الذي جاء بحماس الى سدة الحكم، وهذا الامر لم يكن مستبعدا او مستغربا لان الجميع من كوادر حركة فتح كان يطالب بالاصلاح الداخلي في الحركة واعادة ترتيب صفوفها منذ زمن طويل الا ان الابوات الاوصياء على فتح ظنوا ان الامر مجرد مزحة وان لا منافس لهم في هذا الكون باعتبارهم ابوات الحرب والسلام والديموقراطية والدولارات!

* صحافي من فلسطين يقيم في الامارات
jmajaida@hotmail.com